ISSN 2616-8588 (Online)
ISSN 2616-9223 (Print)
www.afkar.com.pk

Research Journal of Islamic Studies



Volume 3 Issue 2 December 2019

Editor

Dr. Muhammad Atif Aslam Rao

Institute of Social Sciences & Development
Karachi-Pakistan

البحوث فی اللغة العربية

AFKAR *Research Journal of Islamic Studies*
Volume 3, Issue 2, Dec. 2019, PP: 57-76
E-ISSN 2616-8588;P-ISSN 2616-9223
www.afkar.com.pk; www.iri.aiou.edu.pk



Scan for download

نقاط تمهيدية في المنهج السيميائي لدراسة اللغة العربية

Semiotic Approach to Arabic Language Study

Atef Ismail Ahmed Ibrahim Muhesin
Associate Professor of Linguistics
Jumeira University - Dubai – UAE

ABSTRACT

There are many points of view according to different vision but the natural phenomenon for research method is same. The scientific theories and approaches which analyzes the language from the linguistic structural approach, the method of composition, the dissociative approach, the semiotic method of today's scholar especially in the field of modern and contemporary Arabic criticism is due to the spread of translation and increased area of friction with the languages used in the west.

Some of the scholars think that they have introduced new theory and modern devices to the language, but the ancient scholars used the signs of science. According to the west scholars, science is not the exclusive domains of people without others, it is a communication between human beings. From the point of view of Arab scholars, I have summarized the discussion under these facts is: Definition of semiotic, the requirements of the curriculum, the difference between linguistic of sentence and speech, and the statements of renowned scholars in this field. More the need of the semiotic syllabus in our Arabic language also been highlighted.

The contribution of Ancient Arab linguists' strategies is helpful in the field of study Arabic Language. We hope that we should be able to look at the semiotic syllabus in an Arab spirit to show its features.

Key words: *Semiotic, linguistic structure.*

المقدمة:

علم اللغة من العلوم التي تعد جزءا من أجزاء المنظومة العلمية، وتتعدد نظرياته ومناهجه التي تحلل اللغة، فمن هذه المناهج: المنهج البنيوي اللساني، والمنهج البنيوي التكويني، والمنهج التفكيكي، ومنهج القراءة والتقبل الجمالي، والمنهج السيميولوجي السيميائي، ولذا انتشرت العديد من المصطلحات الوافدة على علماء لغتنا في يومنا هذا خاصة في حقل النقد العربي الحديث والمعاصر بسبب انتشار الترجمة وزيادة مساحة الاحتكاك مع الغرب. نقدم تحديدًا لمنهج السيميائية، ومتطلباته بأنساقها المتنوعة.

تعريف السيميائية:

السيميائية علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي الأنثربولوجي، ويدل على كل مظاهر السلوك الإنساني بدءا من الانفعالات البسيطة ومروراً بالطقوس الاجتماعية. وتعنى بدراسة كل ما يخص السلوك الإنساني بدءاً من إنتاجه للغة واللباس وجميع العلاقات الاجتماعية والطقوس الأسطورية والدينية.

والعجيب أننا إذا أردنا تحديد ماهية هذا العلم سنجده أمراً بالغ الصعوبة، حتى محاولة تحديد بعض محطاته الكبرى أمر بالغ الصعوبة، ويثير حوله الكثير من الجدل، بل قد يؤدي إلى الكثير من سوء الفهم. تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكياته أي معانيه، وهي أيضا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني، وأخرى للخطاب، وثالثة للسرد ورابعة للشعر الخ.

والأكيد أن هذه التصنيفات المتنوعة لا تعود إلى طبيعة المعاني التي تنتجها الأشكال التعبيرية المختلفة، فالمعاني لا تتحدد بجواهرها، بل تعود إلى الثوابت التي يفرضها نمط بناء كل شكل تعبيري على حده.

تعد السيميائية في جميع الحالات بحث في المعنى لا من حيث أصوله وجوهره، بل من حيث انبثاقه عن عمليات التنصيص المتعددة، باعتبارها الوعاء الذي تصب فيه السلوكيات الإنسانية.

فقد أنبتت نتائجها النظرية والتطبيقية علوماً كثيرة: كالأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والتحليل النفسي، والتاريخ، والخطاب، وكل ما له صلة بالآداب والفنون، وتناول الإنتاج الإنساني من زوايا نظر جديدة، وإعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى التي يجب تتطلب إجراءً دلالياً لا تجميعا لعلامات متنافرة.

ومن هنا فهل يطبق هذا المعنى اللغة المنطوقة والمكتوبة، على وفق ما قررته بعض المدارس اللغوية في أوربا كمدرسة (براج) اللسانية التي ترى أن "اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة لا تنطابقان، ولكل منهما خصائصه المميزة، ولابد إذن من فحص العلاقة بين لغة الكتابة ولغة النطق"[1] كي نقرر أيهما يدور حوله هذا المنحى الجديد.

وكذلك هل يقصد بها اللغة الحقيقية في معناها ومبناها أم اللغة المجازية، ومن المهم بمكان أن نشير إلى مقولة (تودوروف) في هذا السياق لأنه يعرف العلاقة بينهما، ويعتبر "أن اللغة المجازية تتعارض مع اللغة الشفافة لكي تفرض حضور الكلمات وأن اللغة الأدبية تتعارض مع اللغة المشتركة لكي تفرض حضور الأشياء، فوجود خصم مشترك يفسر صلة القرابة بينهما.. ويفسر في الوقت نفسه الإمكانية المتاحة لهما كي تستغني

أحداهما عن الأخرى.

ويستخدم الأدب الصورة البلاغية كسلاح في صراعه مع المعنى المحصن. ومع الدلالة المجردة اللذين استوليا على الكلمات في الحديث اليومي ويتحقق هذا التعاون بشكل مختلف في النثر عنه في الشعر..." (2)

إن كلمة السيميانية أو "السيميولوجيا"، أو "السيميوطيقا"، مشتقة من الأصل اليوناني، كما يشير إلى ذلك (سـيوسـير) يقول: "يمكننا أن نتصـور علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علما سـيشـكل فرعا من علم النفس الاجتماعي. ومن ثم، فرعا من علم النفس العام. وسـوف نطلق على هذا العلم اسم "سيميولوجيا" (من اللفظة الإغريقية "، التي تعني "علامة")"(3).

السيميائيات صريحة في هذا المجال. أما ما يخص اللسانية فيرى (بيرس) أنها على ثلاثة أبعاد رئيسة، هي: البعد النحوي التركيبي. والبعد الدلالي. وهي الصـفة التي تشـكل العلامة الفردية أو العرفية المتمثلة في القواعد التركيبية للنحو والصـرف، مع مراعاة وجود القرينة، والرمز. فهي تسـلم بوحدة الظاهرة الدلالية: كيفما كانت لغتها وكيفما كان شكل تجليها.

يهتم علم السيميولوجيا بدراسة الدلائل والعلامات في قلب الحياة الاجتماعية، ويجب أن نتصور أنه علم يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسـط المجتمعي، وهذا العلم يشـكل جزءا من علم النفس العام. بما يقرب للأذهان مفهوم ووظيفة علم الدلالة، ذلك العلم الذي يهتم موضـوعه بالجهة التي تقتنص اهتماما فريداً بأنواع الدلالات والمعاني.

ومن هذا المنطلق أصبحت السيميولوجيا تمثل المعرفة والتفحص في دراسة العلامات، وكل أنساقها المحتملة في التعبير الاجتماعي، سواء كانت هذه العلامات لسانية أم غير لسانية.

ويتفق مع ما يذهب إليه ويوازيه في الفهم(لويس بريطو) في أن السـيميولوجيا علم يعنى بالبحث في أنظمة العلامات بغض النظر عن نوعها أو مصدرها، علامات لغويا كانت، أو غير لغوية. إن العلامة اللغوية هي محور مشروع (سوسير) السيميولوجي. ولذا ما يميزه عن اللسانيات البنيوية التي تهتم بالجملة. من خلال تمعن التعريفات التي قدمت للسيميائيات يتضح أنها جميعها تتضمن مصطلح العلامة.

ولو أسقطنا ما عرضنا وفهمنا من مدلول لكل ما قيل وتم تطبيقه على ساحة الفكر العربي نجد كأي علامة لغوية لها ذاكرة ضاربة جذورها في التاريخ، وهنا يتجلى دور اللسانيات لبيان موقعها في هذا الحقل ويقول محمد الحناش فإن "دور اللسـانيات الحديثة، هو إعادة هيكلة قواعد النحو العربي (بمفهومه الواسـع طبعاً) من منظور جديد، فتقدمها بطرق أخرى تكون أكثر ملاءمة مع التطور الذي حصـل في المجتمع العربي، وهذا المنهج لا يعني الانتقاص من قيمة التراث اللغوي (اللساني) بل تأكيد لقيمته.." (4)

متطلبات المنهج:

يتطلب المنهج تحديد ماهية علم العلامات (الأيقون- الرمز- الإشـارة). ومن الصـعب إيجاد تعريف دقيق للعلامة لاختلاف مدلولها من باحث لآخر، فعند (سوسير) تتكون العلامة من الدال والمدلول، ويتضح لنا أن العلامات وأنساقها الموضوع الرئيس للسيميائيات: لأن "اللغة طريقة إنسانية خالصة، وغير غريزية لتوصيل

الأفكار والانفعالات والرغبات، بواسطة نسق من الرموز المولدة توليداً إرادياً"[5] وأوضح أن قيمة العلامة إنما تكمن في علاقتها بما يجاورها من العلامات الأخرى.

وهذا المفهوم تأكد ووضح انطلاقا من مشروع (دي سوسير).

وعليه بات اهتمام الموضوع منصباً على دراسة حياة العلامات في كنف المجتمع، باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، تخرج من المجتمع، وتعود إليه، وتصبح اللغة كالحي لا يتحرك بقدم واحدة بل لابد من قدمين اثنتين، كما أن الإبداع هو نتيجة تعارض وانقطاع بين الواقع القائم وطموح إلى واقع غير متحقق. [6] كي تستهدف تحقيق التواصل، بالنظر إلى أهميته في الحياة الإنسانية.

أصبح من مقتضيات ذلك أن دراسة عدد من الحقول اللغوية بمثابة الشفرة التي تتخذ العمل الاجتماعي للغة كلها.

هذا يقودنا إلى تقبل توسع (بيرس) في مفهوم العلامة، فيشمل – إلى جانب العلامات اللسانية - العلامات غير اللسانية، مما يوحي بصعوبة مدلول العلامة عنده، وأنتج لنا تفريعات وتقسيمات، ما بين:

أ- العلامات اللسانية (أو اللفظية): ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف بأي لغة كانت.

ب- العلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية): وهي التي تقوم على أنواع سننية أخرى غير الأصوات والحروف. ويمكن أن نقسمها إلى علامات عضوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم وأوضاع الجسد والعلامات الشمية والسمعية والذوقية...)، وعلامات أداتية تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المرور...). وعادة ما تُعْطَى الأولوية للعلامات اللسانية التي تقوم على اللغة أو الكلام. كما يقول (سوسير) بأن اللغة مكون كبير ونسق متكامل من العلامات التي تعبر عن الأفكار.

ويتضمن الموقف البنيوي –بالإضافة إلى ذلك- إلحاحاً على الوظيفة الاجتماعية التواصلية) للغة، وتمييزاً واضحاً بين الظواهر التاريخية، والخصائص المميزة للنظام اللغوي في لحظة زمنية بعينها" [7]

لسانيات الجملة ولسانيات الكلام:

إذا تقرر أن الخطاب مجموعة جمل تتوافر على شرط النظام، حتى يتسنى درسه وملاحظته فقد صدمنا بالمنطق الصارم للسانيات التي تحدد موضوعها في الجملة ولا تتجاوزه؛ ولكن الحقيقة خلاف ذلك بقليل حيث تعتبر اللغة بما فيها من خطاب موجه تتحكم فيه عوامل بعيدة عن جمود القاعدة تختلف باختلاف المواقف، عبر عنها (روسو): بقدر ما تنمو الحاجات، وتتعقد الأعمال، وتمتد الأنوار، تغيّر اللغة من طابعها، فتصبح أشد معقولية، وأقل عاطفية، وتعوض المشاعر بالأفكار، وتكف عن مخاطبة القلب لمخاطبة العقل، ومن ثمَّ بالذات تنطفئ النبرة، وتتعدد المقاطع، فتصير اللغة أشدّ ضبطاً، وأشدّ وضوحاً، ولكنها تصير نصاً أفتر، وأصم، وأبرد". [8]

ومن خلال هذا المنحني الطبيعي في الحديث عن بنية لغة الخطاب الموجه فإن (رولان بارت) يعتقد أن الخطاب يمتلك وحداته وقواعده ونحوه الخاص أو فيما بعد الجملة، وأن الخطاب مكون فقط من جمل، إذا عنده الخطاب أولاً ثم اللغة مهما كانت ثانية، فأدخل الاهتمام بالبلاغة بما فيها من جمال تعبيري أولى

بالاهتمام"[9]

تؤكد التجربة أن –بالإمكان- إنتاج الدلالة وتحقيق فعل التواصل بواسطة الأنساق السيميولوجية اللغوية وغير اللغوية.

يقدم بول ريكور مفهوماً للغة أكثر إجرائية من تحديد سابير يقول فيه: "إن اللغة بذاتها هي العملية التي تصبح فيها التجربة الخاصة عامة، فاللغة تخارج يتعالى به انطباع ما ويصير تعبيراً (خارجياً) أو بعبارة أخرى هي تحويل النفسي إلى تعقلي صوري، والتخارج وقابلية النقل هما شئ واحد بعينه، لأنهما ليسا سوى السمو بجزء من حياتنا إلى مستوى لوغوس الخطاب، وهناك يضئ نور الخطاب الشامل عزلة حياتنا المؤقتة"[10].

وانطلاقا من هذه الفرضية التي تتضمن وجهة النظر التي ترى أن التحليل البنيوي يعد "طرفا في الجملة دون أن يكون مجرد مجموعة من الجمل. وهنا تكون اللغة السردية منية أصلاً من جمل كبيرة، قائمة على الجمل التقريرية، ذات الكيان الواسع والمفهوم القاعدي والأساسي في جميع علوم اللغة.

والحقيقة ما قدمه (سوسير) لمفهوم العلامة بأنها مجردة، وتتكون من الدال والمدلول، أي تتجرد من الواقع والطابع الحسي والمرجعي، وارتبطت كذلك بالشعرية والنحو والبلاغة وباقي المعارف الأخرى، بالإضافة لبعض التغيرات الصوتية كآليات يستخدمها المتكلم لضمان المعنى كالفونيمات الثانوية المتمثلة في "وجود النبر والتنغيم بالذات في الكلام المسموع دون المكتوب، يجعل الأول أقدر في الكشف عن ظلال المعنى؛ ودقائقه من الثاني" [11]

السيميولوجيا أعم من اللسانيات أي إن اللسانيات جزء من السيميولوجيا كما عند (سوسير) فإن رولان بارت يعتبر السيميولوجيا أخص من اللسانيات، أي إن السيميولوجيا فرع من اللسانيات وأن كثيرا من العلامات البصرية والأنساق غير اللفظية تستعين بالأنظمة اللغوية. المتمعن في المصطلحين على المستوى المعجمي، حيث استعمل السيمولوجي في الدلالة على أي شيء، ففي الأصل للدلالة على" علم في الطب وموضوعه دراسة العلامات الدالة على المرض". ولاسيما في التراث الإغريقي حيث عدت السيميوطيقا جزءا لا يتجزأ من علم الطب.

وإذ حاولنا استقراء تراثنا العربي، وجدناه حافلا بالدراسات المنصبة على دراسة الأنساق الدالة، والتي نادى بها (جورج مونان) أحد أنصار اتجاه سيمياء التواصل بفرنسا إلى جانب كل من (بريطو)و(بويسنس)و(مارتينيه)...إلخ، فيعني بالسيميولوجيا حيث اتسع المفهوم أكثر فأكثر حتى يشمل دراسة جميع السلوكيات، وفضلوا تحديد مسافة لدراسة التغيرات اللغوية. وكما هو واضح فإن طبيعة اللسانيات التاريخية وموضوعاتها لم تسمح بمعالجة موضوع الخطاب معالجة ذات صلة بجوهر اللغة. فالتحليل التعاقبي الذي طبع المنهج التاريخي في الدراسات اللغوية فرض على (سوسير). أن يؤسس معالم اللسانيات البنيوية، ويرسم خطابا ابستمولوجيا يتعامل مع نظام اللغة بمنطق علمي جديد لا يخفي أصوله الفلسفية والعلمية.

إن التحليل البنيوي للغة ترك مجالا واسعا وفضاء خصبا لدراسة الخطاب من مستويات عديدة: -

المســتوى الصــوتي. - المســتوى التركيبي.- المســتوى الصــرفي. - المســتوى الدلالي. - المســتوى المعجمي. - حتى المستوى البلاغي.

لقد ذهب (سوسير) إلى أن اللسانيات جزء من علم عام هو "السيميولوجيا". يقول: "وليس علم اللغة إلا جزءا من هذا العلم العام.

وإن القوانين التي ســتكشــف عنها الســيميولوجيا ســتكون قابلة للتطبيق على علم اللغة. ويقول في موضــعٍ آخر: أما بالنســبة إلينا، وخلافا لمن ســبقنا، فنعتبر أن المســألة اللســانية هي قبل كل شــيء مســألة ســيميولوجية. انطلاقا من أطروحات ابســتمولوجية لعلم اللغة. والتعيين بينها وبين الكلام الذي يتســم بالتصــرف الفردي للمؤســســة الاجتماعية للغة، فهو نشــاط يتســم بالتحول والتغير ويتيح فرصــا لتحليله من توجهات علمية عديدة: نفســية، اجتماعية، أنثربولوجية .. الخ. وقد وظف أفلاطون لفظ Sémiotike للدلالة على فن الإقناع، كما اهتم أرســطو هو الآخر بنظرية المعنى وظل عملهما في هذا المجال مرتبطا أشــد ما يكون بالمنطق الصــوري، ثم توالت اهتمامات الرواقيين الذين أســســوا نظرية ســيميولوجية تقوم على التمييز بين الدال والمدلول والشيء. لقد فرق فرديناند دي (سوسير) بين اللغة والكلام: "إن اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد، فإنما هي منه بمثابة قســم معين وان كان أســاســيا، والحق يقال، فهي في الآن نفســه نتاج اجتماعي لملكة الكلام ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة.

إذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه، إلى ما هو فردي، وإلى ما هو اجتماعي... أما اللغة فهي على عكس ذلك، كل بذاته ومبدأ من مبادىء، التبويب"[12].

ولكن مهما يكن من فروق بين اللغة والكلام فإنهما متلازمان ومتواصــلان وعلى الرغم مما يبدو للوهلة الأولى من أن دي (ســوســير) قد أهمل لســانيات الكلام وأبعدها من صــفتها العلمية لافتقارها لعنصــر الانسجام والوحدة، ويرى بعض الباحثين بأن "(ســوســير) لم ينف الكلام، ولم يبعده من الدراســة اللســانية، كما قد توهم البعض، و إلا لما كان مقبولا حديثه عن لســانيات الكلام، والمراد بذلك أن الكلام - أي الذات المتكلمة - لا يغيب في الدراسة اللسانية إلا مؤقتا وفقا لمتطلبات منهجية مادام يستحضر ويخصص له حيزا في الدراسة اللسانية.

صحيح أنه ليس من صميم الدراسة اللسانية الصارمة لأن دراسته لا تقوم إلا بتدخل عدة علوم، أي عدة مناهج تختلف من حيث الطبيعة والجوهر مع المنهج اللساني المقترح.

وقد دافع نعوم (تشومسكي) عن هذا الاتجاه حين حدد واحدة "من الإشكاليات الاستراتيجية الرئيسة عندما يتســاءل عن المدى الذي يحرز هذا التضــييق المتعمد كمصــدر للتبصــر العلمي العميق، وهل ينتفي بانتفائه ثم عن المدى الذي يقلل به هذا التضييق إمكانيات الاكتشافات الهامة"[13]. فإن كان (فان ديك) يجنح بالخطاب عن الشكلية، وأوجب اقترانه بالدلالة. فإن (إميل بنفيســت) يرى أن " الجملة لا توجد إلا في اللحظة التي تقال فيها. [14]. ومن هنا فاللغة بالمفهوم الســيميولوجي أضحت مجموعة من العلامات التي ربما تكون آنية، وأن الظاهرة اللغوية هي ظاهرة سيميائية ستكون مادة خصبة للمنهج السيميائي في تحليله للخطاب مع تجاوز الثنائية (اللغة الكلام) مع التركيز على اهتمام الســيميائي بالاجتماعي، وحينئذ ســيصــير الكلام بوصــفه إنجازاً

فردياً غير ذي أهمية في مجال البحوث السيميائية. وقبل هذا فإن التحليل البنيوي استفاد من المنهجية اللسانية، فصار تحليل بنية النصوص في ذاتها ولذاتها، وذلك بفضل المقولة التزامنية في دراسة اللغة. فلا يمكن فصل اللغة عن الإنسان؛ لأنها الأداة التي بها يصوغ مشاعره وانفعالاته. ومع أن اهتمامات الألسنية في مجملها تدور حول مسالة البنية الكلية للكلمة والجملة.

تحليل الخطاب:

يعد مصطلح الخطاب من أكثر المصطلحات تعقداً، وأشدها لبساً، وأكثرها انتشاراً في المجالات المعرفية المختلفة[15]. خاصة في نطاق التحليل؛ لاهتمامه ببناء نظام يناقش إنتاج الأقوال وما ترمي إليه النصوص، وكل ما يصنف تحت ما يسمى بالقدرة الخطابية.

وعند تحليل الخطاب من الناحية العملية يدور في أذهاننا كل ما يصنف حول تداولية الخطاب " فإن بروز الجانبين العملي والقصدي في الخطاب، جعل استعمال الخطاب عند بعضهم يقترن بمصطلحات تؤدي صفتي العملية، والقصدية، من ذلك مصطلحات العمليات الخطابية، وتداولية الخطاب، وخطة الخطاب. [16]. فالجملة في الخطاب هي إطار اللغة بوصفها أداة للتواصل، وهي موضوعه، وتصير وحدة فالجملة هي الوحدة الخطابية، ولكن ليس بعموم الحكم، فلربما تؤدي كلمة ما تؤديه جملة، بل ويمكن أن نزيد عليه بأن ما تؤديه إشارة ما تكفي ما يؤديه حديث ساعة بين اثنين. ولكن اعتبار الجملة لأنها تنقل اللغة من سكونها إلى حركية الاستعمال الفردي (الكلام والخطاب). إن اعتبار الشكل للتلفظ عنصر من عناصر اللغة التي تشكل ماهية الخطاب. فتحديد العلاقة بين المرسل والمستقبل، تسمح للفاعل المتلفظ أن يجد منزلة في الخطاب.

الطريق إلى نحو النص:

جرت العادة أن يتعامل المحلل للخطاب الكلامي بأن الجملة هي محور حركته، وإن النظرية التوزيعية في اللسانيات الحديثة أسهمت بفضل جهود (بلومفيلد) و(هاريس) في دراسة قواعد الجمل، وتحليلها بوصفها وحدات ممكنة في لغة معينة بمعنى يجب أن تتوافر فيها القابلية للتحقيق بهذا التصور لقواعد الجمل، ويمكن النظر إلى تحليل الخطاب على أنه الطريق إلى معرفة المقاييس التي يلجأ إليها لتحديد المتتاليات من الجمل الملفوظة المتشكلة للتوافقات المتضافرة لتحقيق التكافؤ بين الجمل المنتمية لهذا النوع داخل النص؛ لأن "مقاربة النص مقاربة بنيوية جارية على مثال الدرس اللساني للجملة، كانت أدخل في منطق الخطاب الأدبي، وأخرج عن الأصل اللغوي المحض من جملة أو موضوع البحث، والبحث والنظر، ليس نحو الجملة، وإنما نحو النص الذي يختص بمكونات تختلف عن مكونات الجملة[18].إلا أن (تودوروف) يرى "أن العلاقات بين الشخصيات، في كل من أنواع السرد يمكنها أن تقتصر على عدد محدود، ويكون لشبكة العلاقات هذه دور رئيسي في بنية العمل" [19] فالتعامل مع النص كله باعتباره الوحدة الفصل وليس الجملة.

اللبس الفكري في تحديد بعض المفاهيم

يعاني البحث العلمي عموماً من إشكالية تحديد المفهوم، فمفهوم الجملة من ناحية دلالتها المباشرة وغير المباشرة، وتتمتعها بالصحة الدلالية والمنطق اللغوي السليم، عندما تخلو من التنافر الصوتي، وتتميز

بناء كلماتها بالاختيار الموفق لأبنيتها، وتخضع بنيتها التركيبية لقواعد اللغة الواضحة، هذا جانب تركيبي، ولكن ثمة جانب آخر وهو الجانب المعرفي الكائن في تحديد مقصودها بعيداً عن ماهيتها التي "تتألف من عناصر تعود إلى ثبت مغلق، ومن أصـوات محدودة العدد ترتبط بالمعنى، ولكن هناك بنى وجمل تختلف في معناها وتتحقق بأشكال متشابهة، وهناك أيضا بنى وجمل تتشابه في معناها وتتحقق بأشكال مختلفة "[20].

والملاحظ أن تحليل الخطاب يقودنا إلى إدراك التكافؤ والتقارب بين عناصـر الجمل والنصـوص، وبشـكل متواصـل في صـناعة وإبداع وإنتاج النص، وترتكز على الملفوظ حتى نصـل إلى نص منهجي كما أسـماه (هاريس) لأنه يعتمد على طريقة منهجية ترتكز على الإشهار[21]، معتمدا على إمكانية إجادة تحقيق الثنائية التي اعتبرها (تشومسكي) أساساً في جهده اللغوي الكفاية والأداء عند منتج اللغة.

التلفظ والتناص:

التلفظ كل ما يصدر من المتكلم بقصد ونية مبيته، عبرت عنه الآية القرآنية في قول الله عز وجل: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[22].

ارتبط مفهوم نظرية التلفظ بمفهوم التركيب اللغوي، وتحليل للخطاب فيه مرتبط بتحليل التلفظ المدرك، وهو سـمة من السـمات المحسـوسـة لأفعال الكلام، رغم ما قد يشـوبه في بعض الأحيان من إحسـاس بقصور في احتواء موضوع التلفظ، نظراً للفشل في إنشاء تلفظ مناسب لموضوع الحديث، وربما يكون ذلك في الخطأ البنائي للجملة المنتجة، أو ما يطلق عليه بالعجز اللساني، أما المتمكن من بناءه اللساني فيشعر بارتياح أكثر في إنتاج جمل قوية يخترق بها المعنى اختراقاً: فيصـل إلى تخوم (التلفظ) وينجح في خلق جو من الدفء اللغوي الناتج من الصحة العامة للجمل المنتجة.

أما التناص فقضـية معقدة وشـائكة، تحرك في أفقها كثيرا (باختين)، وحولها (باختين) إلى مفهوم جديد يدور حول التداخل بين النصـوص، واعتبر أن المقولات اللسـانية هي الطريق لتحقيق فكرة التناص، لإيمانه المطلق بأن" ليس من بين مقولات اللسـانيات مقولة تصلح لتحديد الكل، والواقع أن المقولات اللسـانية لا يمكن تطبيقها في حالتها هذه إلا داخل (التلفظ)[23]، وأصبح من المعتبر عمليا أن " كل ظاهرة أسـلوبية تنبثق من نص ما هي قضية وجود، وحضور في كل أسلوب جديد"[24]

ويراعى عند دراسة الخطاب ما قبل إفراز النص أي الصورة الذهنية المخزونة في الذاكرة، التي شكلتها اللغة عن طريق الخطاب، أو هو النص الفاعل نفسه، وتحليل الخطاب في كيفية تكوين النص في ذهن صاحب النص. ويعرف الخطاب المروي بأنه "خطاب في الخطاب، وكلفظ في التلفظ، لكنه في الوقت ذاته خطاب عن الخطاب وتلفظ عن التلفظ "[25]. "ويعرف بأنه الوحدة القاعدية الحقيقية للسان - الكلام ليست هي التلفظ - الحوار الداخلي الوحيد والمعزول، كما هو معروف، ولكنها تفاعل تلفظين على الأقل أي الحوار"[26]. فكل لفظ يحتوي داخل بنياته من خلال المرسل والستقبل يجد رغبة الأول في التأثير على المتأثر.

السيميائية العربية

وجود المنهج: لم يكن لهذا المصـطلح وجود إلا من خلال الدراسـات التي تنادي به في وطننا العربي عن طريق

الترجمات اللغوية التي انتقلت إلينا عن طريق المفكرين العرب، والمد الثقافي الأوربي الممتد وكل من تتلمذ على المدارس السيميولوجية في أوربا.

ظهر المصطلح بوضوح وبشكل قوي ملحوظ على يد لغويي المغرب العربي، ثم بدأ المد الفكر العربي يبشر به، رغم أن بدايته كانت تدور حول اعتماده منهجاً نقدياً في حقل دراسة الأدب، والنقد الأدبي.

ودار حول ترجمة هذا المصطلح إلى العربية اختلاف كبير، فمنهم من يستعمله بمصطلح "السيميائيات"، ومنهم من يترجمه "بالسيميولوجيا. ومنهم من يترجمه ترجمة حرفية؛ أي بلفظ "سيميوطيقا". ويستعمل بعضهم مصطلح "الرموزية". ويقترح آخرون –وهم قلة- مصطلح "الأعراضية" مقابلا للمصطلح الأجنبي، وقد تطرق المسدّي إلى المصطلحات الموضوعة لمفهوم السيميائيات في النقد العربي الحديث، ودرَسها مبيناً الكيفية المتبعة في توليدها.[27]

أولى العديد من الأدباء والكتاب واللغويين عنايتهم بهذا المصطلح، وحملوا على عاتقهم مسئولية التعريف به والتنظير له، من خلال ترجمة العديد من المؤلفات الغربية ومن خلال كتابات الأدباء والكتاب ونظرات الأكاديميين، نحو: (حنون مبارك- صلاح فضل- جميل حمداوي- فريال جبوري غزول-...)، أو عن طريق الترجمة لـ(محمد البكري- سعيد بنكراد...)، وإنجاز أعمال تطبيقية ككتب (محمد مفتاح - سعيد بنكراد- سامي سويدان)، وظهرت المقالات الأدبية المتنوعة في المجلات الأدبية واللسانية كـ (مجلة علامات بالمغرب) و(مجلة عالم الفكر الكويتية) وعلامات في النقد السعودية و(مجلة فصول المصرية). واستوى الأمر على عوده فأعجب زراع العلم ودارت حول الموضوع حلقات البحث العلمي فتخلل وجوده في الرسائل العلمية الجامعية في الغديد من ربوع الوطن العربي، خاصة في جامعات المغرب العربي.[28]

صلاحية المنهج لدراسة اللغة العربية:

كانت بداية ظهور المنهج على يد رجال الأدب، وحاول علماء العربية وضع أسس ومباديء تهيء اعتماد فكرته منهجاً لدراسة اللغة العربية، ولكنها لم تلق رواجاً كافياً للأسباب الأتية:

- عدم اقتناع معظم رجال اللغة به، نظراً لغموض مصطلحاته عند رجال الأدب أثناء تناولهم له.
- وجود المنهج اللغوي البديل لدراسة موضوعاته في اعتماد الدراسة الدلالية بعمومها كمنهج كامل يغني الباحث عن الخوض في طرق غير واضحة المعالم.

الأبعاد الدلالية :

اللغة نظام يتألف من بنياء شكلي، وصورة متوفرة ومخزونة في ذهن المتكلم والسامع، وعليه " فدراسة اللغة أو تحليلها ينبغي أن تبدأ من النية الداخلية".[29] وتتضح الأبعاد الدلالية بوضوح عن المساهمة في توضيح مفهوم البعد النفعي في التجربة الإنسانية، خاصة عند تحقيق الربط والانسجام بين السياقات المختلفة، فندرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، مع توفر العلامات والإشارات المستخدمة للرمز، بدلالاته الإيحائية، وعندئذ لا تصل للإقناع إلا بعرض جميع المعاني الأولية والثانوية، القريبة أو البعيدة.

إن المعنى موجود في الاستعمال لا في الوحدات اللسانية المعزولة، المخزون من الكلمات والقواعد

الســـابقة في ذهن المتكلم، فالكلمات تقوم داخل الخطاب بنســج ســلســلة من العلاقات المنبثقة عن الطابع الخطي للســـان الذي يســـتبعد إمكانية النطق بعنصـــرين في آن واحد، والترابط بين الوحدات المســـتمدة من العلاقات التركيبية، والتوافق بين الشـكل والمضـمون التناظرية، وكذلك العلاقة التوليدية، والتأويلية، وبعض الدلالات والإيماءات وشـــرح معاني الصـــورة واللوحة، والدلالات الخفية والصـــريحة، وبعض الظواهر غير اللسانية المنبثقة من عدة عناصر، وهي: (الشكل – اللون – المكان – الزمان - الملبس والمأكل والمشرب).

فطبيعة الأمر أن اللســـانيات المعاصـــرة حددت جغرافية الخطاب عند حدود الجملة، فحظيت الاهتمام والدرس بوصـفها وحدة تتوافر على شـرط النظام. وهي غير قابلة للتجزئة، وإذا أمعنا النظر في ماهية الخطاب على أنه ملفوظ يشكل وحدة جوهرية خاضعة للتأمل.

يبدو في حقيقة الأمر أن الخطاب نابع من تسلسل الجمل المتتابعة التي تصوغ ماهيته في النهاية.

ومن الدارســين الذين يعتبرون الســيميائيات منهجا نجد الدكتور عبد الرحمن بوعلي الذي يقول في تقديمه لأحد كتب (دولودال) التي ترجمها إلى العربية: "تحتل الســيميوطيقا – أو الســيميولوجيا- مكانة هامة ضـمن المناهج النقدية. ولئن كان البعض يعتبرها مجرد موضـة من الموضـات، فإن هذا الوصـف لم ينقص من قيمتها كمنهج علمي وإجرائي في الدراســات الأدبية وتحليل النصــوص الأدبية بالدرجة الأولى، بل ولم يزد المشــتغلين بها إلا مقاومة لكل نزعة تبســيطية. ولذلك فهي في الاعتبار الصـحيح منهج لا يمكن التقليل من أهميته أو التقليص مما يمكن أن يفتحه من سبل وآفاق جديدة تنير مجاهل التعبير الأدبي والفني"[(30)]

إشكالية غموض المصطلح:

أدي تشعب واختلاف دلالة مصطلحات المنهج السيميائي إلى التدخل والتشعب الاضطراب الفكري في توضيح ماهية تلك المصطلحات.

ويؤكد (جون كلود كوكيه) أحد أقطاب مدرســة بارس الســيميائية قائلا:" إن القارىء العادي، وكذلك الباحث في مجال العلوم الاجتماعية من حقهما أن يتســاءلا عن موضــوع هذا العلم، إلا أنهما مع ذلك يجب أن يعلما- على الأقل- أن التعريفات والتحديدات، تختلف ولاسـيما إذا تعلق الأمر بموضـوع علمي لم يمر على ميلاده وقت طويل."[(31)]

يرى أرســطو: أن الحوار الإنســاني يشــترط وجود العناصــر التالية: "الكلام" و"الأشــياء" و"الأفكار". فالأشـــياء (العالم الخارجي) هي ما تراه حواســنا وما تدركه عقولنا، أما الأفكار (المفاهيم) فهي أداتنا لمعرفة الأشياء، وأما الكلام (العلامات اللفظية) فهو الأصوات المتمفصلة في وحدات، وهي ما يخبر عن الأفكار، فبدون علامات لا يمكن تصــور أي شـيء. " إن للإنســان قدرة عقلية تعد نموذجاً فريداً لا يمكن أن يعزى إلى أشــياء خارجة عنه، وأن هذه المقدرة تتمثل في هذا الجانب الخلاق أو الإبداعي من العقل البشــري والتي تعد اللغة الإنسانية من أبرز مظاهره "[(32)]

لكل لغة ســيميائيتها الخاصــة التي تتكفل بصــياغة قواعد بنائها الداخلي. فهذه اللغات تحتكم إلى "نحو" يحدد لها نمط وجودها ونمط اشــتغالها. والمقصــود بالنحو في جميع هذه الحالات هو مجموعة من

القواعد الخاصة باشتغال كل نسق على حده، وهي قواعد تتضمن في آن واحد ما يعود إلى التركيب وما يعود إلى الدلالة، أي ما يعود إلي طريقة البناء وما يعود إلى المضـمون الدلالي. فلا يمكن للصـورة مثلا أن تنتج دلالاتها بنفس الطريقة التي ينتج بها السرد مثلا دلالاته.

أسبقية المنهج في دراسة اللغة:

لا يجب أن ينظر لهذا العلم بأنه سـبق في حد ذاته، ففكرته الغربية باتت قديمة رغم قول بعض الباحثين "لقد رأت السـيميولوجيا النور على يد دي (سـوسـير) الذي اعتبرها علما أرحبَ دلالةً من علم الألسُنية..." [33]

والحقيقة التي لا نحيد عنها أن إسـهام العرب الأُوَّل في هذا المجال واضـح من خلال الكتب التراثية، عندما حاول بعضهم تناول قضية الدلالة باعتبارها النسبة الرابطةً بين اللفظ والمعنى، أو بين الدال والمدلول، فالعلاقة الواقعة بين الدال والمدلول علاقة ذاتية، ينظر إليها على أنها دلالة وضعية، أو دلالة اصطلاحية قائمة على المواضـعة والاتفاق. [34] في شـكل أنسـاق مترابطة، كل نسـق فيها يمثل وظيفة نحوية، تحدها العلامة الإعرابية، مع وضع في الاعتبار أن أصل هذه التراكيب اللغوية أصوات مفككة، تلتحم مع بعضها البعض وبكل صور التوافق والانسجام الصوتي دون تنافر بينها مكونة كلمات على شكل أبنية الكلمة، تلك الكلمات التي تمثل اللبنات الأولية للبناء الكامل المتكامل من جمل وفقرات ...إلخ.

تعرض الدكتور عبد العزيز حمودة في كتابه[35]: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، حيث تحدث عن مفهوم العلامة، وحدد ماهيتها، ووظيفتها " وما توصـله العلامة هو الدلالة، وعملية التوصـيل ذاتها من طرف إلى طرف آخر، هي التدليل" ثم قدم توضـيحاً لأشـكال العلامة التي يمكن أن تأخذ أشـكالا متنوعة: المفردة اللغوية، أو الكلمة، فقال " تحدث سـوسـير عن الكلمة أو المفردة اللغوية مقروءة أو مكتوبة باعتبارها علامة" [36].

وعبر عن هذا كله بقوله: قد توجد العلامة على شـكل وحدة لغوية منفردة هي الكلمة، وقد توجد داخل نسق كلى مصغر هو الجملة، وقد توجد على شكل نص أو نسق أكبر ينظم عدداً من الوحدات الصغرى داخل عدد من الأنساق الصغرى وهو النص" [37].

ثم يعرض لنا تعريف العلامة عند أرسـطو، فيقول: إن الأصـوات التي يخرجها الإنسـان رموز لحالة نفسية والألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت. [38].

ثم يقدم لنا تعريف بيرس فيقول: يرى العلامة باعتبارها شـيئاً يمثل بالنسـبة لشـخص ما شـيئاً في جوانبه أو صـفاته. [39]، و" أن اللغة كنسـق أو أنسـاق علامات كانت دائما موضـع اهتمام الدراسـات الأدبية والنقدية بدرجات متفاوتة" [40]، وخلص إلى قوله " ومن هنا أصـبح علم اللغة يدرس العلامات في اللغة وليس في الكلام".[41] و" أن اللغة عبارة عن تراكيب أو أنساق من مفردات لغوية ترمز لعمليات ذهنية".[42].

ونبه على نقطة مهمة جداً وهي، أنه لم يتوقف الأمر عند دراسـة اللغة النثرية، بل انتقل إلى اللغة الشـعرية، فيقول: والعناية البالغة بالجانب اللغوي والموسـيقي في القصـيدة وتوظيف الإيقاع والوحدات

الصوتية والتركيبية، بما يثري الشكل الشعري قبل كل اعتبار.[43] وتدور محاور العلامة الأساسية[44] عنده حول:

- العلامة أياً كان نوعها أو حجمها. - الرسالة (الدلالة – المعنى المراد). - السياق الذي يحمل طبيعة الموقف اللغوي.

سيميائية المنهج العربي بين النظرية والتطبيق

تعددت المناهج الحديثة فتعددت العلوم، وانتقلت من الفروض إلى التنظير إلى التطبيق؛ ولكن أي المناهج ترقى وتنتقل من حيز التفكير إلى حيز التنظير، إلى حيز التطبيق.

والمنهج السيميائي بكل ما تم الخوض فيه في هذه النظرة السريعة، لم يجد الطريق الممهد السليم للتطبيق، بكل مرونة، ومازال أمامه الكثير ليصل إلى هذه الدرجة، فما زالت في طيات الآمال، رغم ما يعج به النص كونه خزانا من الاحتمالات الدلالية المتوقعة عند تفسير الحدث الكلامي.

النص هو وحدة متكاملة لا وجود للجزيئات فيه إلا بمقدار صلتها بالكل، والجملة في النص لا تحلل أو تفهم في ذاتها، وإنما من خلال النص بأكمله.[45] ويتجلى ذلك بوضوح في دراسة الأسس اللسانية وموقعها في قراءة الصورة الفنية. أما ما يخص فلسفة اللغة حيث الإنسان هو الكائن الوحيد المنتج للدلالات، بدءاً من الأصوات إلى أشكال حاملة للمعاني. فالكشف عن القواعد التي تحكم طريقتها في إنتاج معانيها، فإن السميائيات وسعت من دائرة اهتماماتها لتجعل من كل الأنساق التواصلية التي يستعين بها الإنسان في خلق حوار مع الآخر موضوعاً لدراستها.

لقد صار التحليل السيميائي تصوراً نظرياً ومنهجاً تطبيقياً في شتى المعارف والدراسات الإنسانية والفكرية والعلمية وأداة في مقاربة الأنساق اللغوية وغير اللغوية. وأصبح هذا التحليل مفتاحا لابد من الالتجاء إليه.

ويكمن وجود السيميائية كمنهج للتفكيك، والتركيب، في الشعر بأنواعه المتعددة في اللغة، والنثر الرواية والقصة، الأسطورة والخرافة، المسرح....حتى دراسة الفلكلور الشعبي.

وليس عيباً النظر في إمكانية الاستفادة منه في إثراء الفكر اللغوي عند دراسة دلالات الإشارة في النص.

إسهامات اللغويين العرب وأدوات منهجهم في دراسة اللغة، وفق هذا العلم:

كان اللغويون العرب سابقين إلى رسم استراتيجية دراسة اللغة العربية، فتأسست على أيديهم علوم كثيرة كعلم أصول النحو، وأصول الفقه، ونعرض قضية واحدة تحدث عنها اللغويون القدامى على اختلاف مشاربهم وعصورهم ونرى ما فيها من توافق كنقطة تلاق بينهم وبين ما حدث به بعض لغويي العصر الحديث.

أبدع علماء العربية في رسم منهجية قائمة على الإرادة الواعية واتسمت بالتنظيم الداخلي ووضوح المفاهيم المطروحة للنقاش كمفهوم للجملة الذي يقترب كثيرا من تداول الفكر من قديم وحديث لأطروحات علماء اللغة العربية عندما يعرفون الكلام على أنه كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه. وهو الذي يسميه النحويون الجمل، "نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه ومه ورويدا... فكل

لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام "[46]. وإذا كانت عناصر مثل الكلمة والصوت والنغم تشكل إطار الجملة، وتعمل عل بناء المعنى، فهذا لا يعوق دراسة الخطاب من وجهة نظر لسانية. فالجملة بالنسبة اليه وحدة لسانية لا تؤلف صنفا شكليا من الوحدات المتعارضة بينها، مثل تعارض القونيمات الفونيمات أو الفونيمات مع المورفيمات ،أو المفردات مع المفردات.

ومن الدراسات العربية المتعددة والمتنوعة التي تنتشر في طيات كتب العربية القديمة يتضح لنا أصول وجذور هذا العلم عند العرب القدامى، فما تحدث عنه أبو عبيدة في إعجاز القرآن، وما تحدث عنه الجاحظ في صناعة الكلام، فقد قال أبو حيان في كتابه تفريط الجاحظ: اتفق أهل صناعة الكلام بأن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة وأبو البلخي، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه وهو على بن عبيدة، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد. [47]. وكذلك ما بينه ثعلب في بيان قواعد الشعر، وكذا أبو سعيد الأصفهاني في كتابه تهذيب الفصاحة، وكتاب الصناعتين لأبي هلال.

من أهم القضايا التي عرض لها علماء العرب القدامى، وتدخل في إطار اهتمام الفكر السيميائي، ويحمل مدلول (فقه اللغة) وغالباً ما يدور حول فلسفة اللغة، وتقوم على اتساع أو الدعوة إلى اتساع مساحة التخيل في تفسير المعنى، وبالتالي يناقش بعضاً من قضايا اللغة منها:

- " أصل اللغة " وضع اللغة وطبيعتها وعلاقتها بعالم الأشياء.

- اللغة باعتبارها نشاطا إنسانيا عاما تتجاوز في كيانها حدود اللسان الذي لا يشتغل داخلها سوى وسيلة ضمن وسائل أخرى لا تقل أهمية عنه كالإشارات، والطقوس، والرموز، والأمارات ...)، فلن يكون مفيداً، التواصل على اللسان وحده، فعلماء اللغة يحددون الكلمة بأنها "وحدة في جملة تحدد معالم كل منها بإمكانية الوقوف عندها" والجملة هي. "تتابع من الكلمات والمرقمات التنغيمية [48]

أولى اللغويون العرب للكلام أهمية كبرى، وربطوه بماهية الجملة، وقسموا عناصرها إلى اسمية وفعلية من حيث موقع المسند والمسند إليه [49]، وما أنجز عنها من علاقات حددها تمام حسان في العلاقات السياقية (القرائن المعنوية، وحصرها في الإسناد)، والتخصيص، والنسبة والتبعية، والمخالفة[50]. الفروق القائمة بين اللغة والكلام، كما هو الشأن لدى (سوسير) أن "الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه. فذلك يعني تجاهل وإهمال أنساق أخرى لها دور رئيس في إنتاج المضامين الدلالية وإبلاغها؛ حيث قرر إن المعنى موجود في الاستعمال لا في الوحدات اللسانية المعزولة.

وكذلك البحث الدلالي وأنواع الدلالات عند " ابن جني "، من خلال كتاب الخصائص والتنويه إلى قضية اللفظ والمعنى، فاللغة هي التي تمدنا بكل ما نعرفه عن العالم الخارجي. واللغة والإنسان والطبيعة والثقافة والعلوم، واللغة و العلامات والرموز، والعلامة ووظيفتها وموقعها ومكوناتها، تماما كما فعل من قبل مع اللسان الذي اعتبره مهداً لهذه العلامات. ومن خلال " تتداخل الكلمة والجملة في مفهوم متلاحم، وعليه فإن الجملة تتشكل من "مجموع الوحدات التي يصح أن يقف بينها (الكلمات) بالإضافة إلى درجة الصوت والتنغيم والمفصل، ونحو ذلك مما يدخل في إيضاح المعنى "[51] أو ما يطلق عليه الفونيمات الثانوية.

الجرجاني: تحدث الجرجاني كثيراً عن مصطلح الخطاب، وعناصره من خلال حديثه عن مسألة الفصل والوصل عن التصور النحوي للمكونات في نطاق الجملة. فإنه جعل للمعنى سلطاناً يتحكم في تناسق عناصر الخطاب وانسجامه متوسلا في ذلك بمصطلح " معنى الجمع".(52)

" النظم قلما يخطيء العربي الأصيل في مراعاة طريقه؛ لكن المحدثين والمولدين زحف عليهم الخطأ من كل مكان، وخاصة لشدة اختلاط الألسنة، وامتزاج الأجناس.(53) وإن النحو غايته تصحيح المعاني وإذا أرادوا صحة التراكيب فلدلالته على المعنى الذي أراده الشاعر أو الذي تتطلبه عبارة الناثر، أما النظم عند عبد القاهر ليس شيئا آخر سوى تعليق الكلام، بعضه ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.(54)

وعرض عبد القاهر فكرة النظم في نظريته عن الصياغة، بقوله: ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وعرض لفصاحة الكلام، وخلوها من الغرابة والتنافر بين الحروف ومطابقة الكلام للسامعين.(55)

وليس من شك في أن الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف في كثير عن نظرية النظم العربية التي وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجاني.(56) والصياغة عند عبد القاهر تتفاوت على درجات وهي أمارة على البراعة والحذق، ولها لطائف لا تحصى.(57)

ومن الأمور التي تحدث عنها الجرجاني شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه، والالتحام بين أجزاء النظم، والتآمها على تخيير من لذيذ الوزن، وكذلك مناسبة المستعار منه للمستعار له، ومع معالجة مشاكلة اللفظ وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما. حيث " الأسلوب إذن هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام.(58)

ابن جني: يقدم لنا ابن جني مقتطفات من الجهد اللغوي الراقي الرائع من خلال كتابه الخصائص الذي جمع فيه فقه اللغة العربية، إن لم يكن اللغة العالمية، فلخّص رأيه ورأي أكثر أهل النظر في حقيقة نشوء اللغة بـ "أنّ أصل اللغة إنّما هو تواضع واصطلاح"(59)، وقدم لنا مقولة لغوية دقيقة كان له السبق فيها بقوله: "أصوات يعبّرُ بها كلّ قومٍ عن أغراضهم"(60) و" اعتبار اللغة جوهراً مادياً خاضعاً لقوانين العالم الطبيعي الثابتة، إذ أنها خلق إنساني، ونتاج للروح البشري تتميز بدورها كأداة للتواصل ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر فهي مادة صوتية، ذات أصل نفسي اجتماعي.(61)

ومما قدمه ابن جني من روائع البحث الدلالي في حديثه عن أنواع الدلالات، وانشغاله بطرح قضية اللفظ والمعنى، فإذا كانت الجملة هي الكلام عند ابن جني، فهي تقابل القول عند سيبويه، وحديثه عن التذكير والتأنيث وإفراد الجماعة وجمع المفرد.(62)

ابن الأثير: تناول ابن الأثير القضية ذاتها في طيات حدبثه بقوله: " وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك(63).

الزمخشري: أما جار الله الزمخشري فعرف الكلام بأنه "المركب من كلمتين أسندت أحداهما إلى الأخرى... وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك زيد أخوك، وبشر صاحبك، أو في فعل واسم نحو قولك ضرب زيد وانطلق بكر ويسمى جملة "[64]. إن تصور اللغويين العرب للجملة وصلتها بالكلام لا يخلو من غموض وتناقض في بعض الأحايين .

الجاحظ: يعد الجاحظ مدرسة لغوية متكاملة، تكلم عن العديد من القضايا اللغوية، فنجده يقسم أنواع الكلام، ويحسب المقامات.[65]

ولم يقتصر اهتمام الجاحظ بهذا فقط، بل انتقل لدراسة أصوات اللغة بدقة متناهية، فقال" وأن حروف اللغة الواحدة في اجتماعها بالكلمات والجهل يتنافر بعضها الآخر وقد لاحظ الجاحظ أن الجيم لا تقارن الظاء ولا الطاء ولا الغين بتقديم أو تأخير وأن الزاي لا تقارن الطاء ولا السين ولا الضاد ولا الغين بتقديم أو تأخير، وأن الزاي لا تقارن الطاء، ولا السين ولا الضاد الذال بتقديم ولا تأخير". [66]

عبر أيضا عن التأثير والتأثر بين الأمم، وبالتالي اقتضى الكلام عن الدخيل وأكد أنه " باحتكاك العرب بأبناء الشعوب الأعجمية أسهم في إدخال الدخيل على العربية من ألفاظ جديدة، وصيغ حديثة وأشاعوا فيها اللحن واللكنة.[64] و" إن العرب في الجزيرة العربية كانت لهم لغة واحدة وأخلاق واحدة بسبب وحدة التربة والهواء والماء". [67]

مما يلفت النظر حديثه المطول عن اللغة الخاصة، وما ينبغي من اللغة للملوك والسوقة عبر عنه بقوله:" لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقاتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم".[68]

الرضي: يفرق الرضي بين الكلام والجملة، وأن الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي، سواء كانت مقصودة لذاتها أولا كالجملة التي هي خبر المبتدأ وسائر ما ذكر من الجمل .. والكلام ما تضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته، فكل كلام جملة ولا ينعكس "[69].

الموشح الأندلسي وصورة من صور السميائية:

الذي يقرأ الموشح ويقارنه بالشعر العربي الأول يجده يختلف عنه في موضوعه وبناءه، بعض الشيء، يلحظ توفر البيئة الأندلسية المختلفة عن البيئة العربية الأولى القحلة، وبالتالي تظهر الرموز والعلامات والإشارات نظراً للرفاهية وبساطة العيش، والترف الفكري والفراغ الذهني، والطبيعة الخلابة.

نعرف من خلال كلام صلاح فضل في حديثه عن الموشح الأندلسي بين الانحراف والتناص، وعند التأمل بعين الفاحص للموشحات الأندلسية، وما أدخلته من حداثة على القصيدة المشرقية، ومدي انحرافها الحاد عن نموذج القصيدة الشرقية، وخروجها عن إطاره وهو انحراف أندلسي، في صميمه أدت إليه ضرورات الزمان والمكان، وتجلى في ثلاثة مستويات متراكبة، موسيقية، لغوية، وأخلاقية. [70]

ثم إن دلالة بل دلالات بلاغية اصطلاحية معروفة تستوحى من فن الموشح لخير دليل على مراعاة الأسلوب، بما يتمتع به من غزارة في العلامات والإشارات بدلالاتها المتنوعة، " إن التوشيح أن يكون مبدأ الكلام

ينبأ عن مقطعه وأوله، يخبر بآخره، وصدره يشد بعجزه".[71]

وهذا أيضاً يظهر في شعر العرب فيما بعد الاندماج العربي الفارسي أبان العصر العباسي. فلما " جاء العصر العباسي وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد، فجاور العرب الفرس، وأخذوا بحضارتهم، الناعمة المرهفة فجدت في الشعر فنوناً لم يألفها الجاهليون إلا بمقدار كأشعار المجون والخمر أو لم يألفوها أصلا كالغزل بالمذكر.[72]

ولا يمكن في جميع الظروف عدم مراعاة المفهوم الثقافي للكلمة: لأنه يمثل جانباً من الأهمية في فهم اللغة بعمومها. وبالتالي تنشط الذاكرة اللسانية عند الإنسان، وعند استحضار اللغة، ويكشف عن المخزون الدلالي، مع مناقشة التنوع اللغوي حسب الاختلاف في الزمان وفي المكان، رغبة في الدلالات المتنوعة الموجودة أو عن طريق التوليد الدلالي " أو " إنتاج الدلالات وتداولها". مع البحث عن الدلالات الجدلية في تفسير المفردات، ومناقشة تنويع السياقات، وتعدد المضامين، مع رصد المعنى وتحديد بؤره ومظانه داخل النص، وتناوله للعديد من الانزلاقات الدلالية، من خلال السياق الذي يعد أساساً من أسس حديد مفهوم الدلالة، ودراسة اللهجات العربية، وفق محاور متعددة كالتالي: * علم التاريخ والأنساب. * علم الجغرافيا. * علم والأنثربولوجي. * علم السياسة.

نقد السيميائية:

لم تَسْلَم السيميائيات من عيوبٍ ومآخذَ، وأبرز الانتقادات الموجهة إلى التحليل السيميائي، التي يمكن إجمالها فيما يأتي: [73].

- ينظر للسيميائية على أنها مازالت مجموعة من الاقتراحات أكثر منها كيانا معرفيا قائما على أساس متين". ولم تصل لدرجة الأنموذج من تطورها كعلم".[74].
- يؤخذ على التحليل السيميائي أنه يعاني من الاضطراب المكون من خليط من علوم اللغة والنحو والبلاغة.
- يغْرق في التجريد والمنطقة، ولا ينزل لأرض الواقع خاصة السيميائية اللسانية.
- وقع المنهج السيميائي في أزمة حقيقية وهي باختصار أنه لا يوازن في قوته في معالجة الظواهر المركبة أو المعقدة، بل يميل للظواهر الثانوية البسيطة. من خلال اهتمامه بدراسة العلامات البسيطة.
- يشعر أصحاب المنهج السيميائي أن أتباع هذا المنهج في مأزق عند التعامل مع النصوص الحساسة التي تعد الحديث عنها اختراق المسكوت عنه، واعتبار الخوض فيه جرأة علمية.
- اعتماد المنهج السيميائي وويقوفه عند حدود الملاحظة والوصف ولا يتعدى ذلك إلى التقويم والتوجيه.

الهوامش والحواشي:

(1) ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح، ووفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص193.

(2) انظر: تزيفتان تودوروف، الأدب والدلالة، ترجمة محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، 1996م، ص117.

(3) الأحمر، فيصل:معجم السيميائيات.منشورات الاختلاف.الطبعة الأولى.1431هـ/2010م.ص 11-12 بتصرف. محاولة في أصل اللغات، جان جاك .رسو، ترجمة: محمد محجوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط9،

(4) الحناش، محمد: البنيوية في اللسانيات، الحلقة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1980م، ص6.
انظر: التحليل البنيوي للسرد رولان بارت، ت: مجموعة من المؤلفين، مجلة آفاق المغربية، ع: 8, 9، 1988_،ص 9.

(5) سعيد، خالدة: حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، ط 2، 1979 ص 13- 14. وانظر: ريكور، بول، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2003، بيروت، الدار البيضاء، ص48 .

(6) سعيد، خالدة: حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، ط 2، 1979 ص 13- 14.

(7) ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح، ووفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص193، انظر: دروس في الألسنية العامة دي (سوسير): ترجمة: مجموعة من المؤلفين التونسيين. ص: 29.

(8) جان جاك رسو: محاولة في أصل اللغات، ترجمة: محمد محجوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط9.

-Emile Benveniste, Problemes De Linguistique Generale, Ed, Gallimard,Paris,1974 Till, pp 224-225.(9)

(10) الخبو، محمد: الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، من 1976- 1986م، جامعة صفاقس، دار صامد، تونس 2003م. ص 16.

(11) ينظر: حسان، تمام، اللغة العربية، معناها ومبناها، دار الثقافة، ط.ن.لا، الدار البيضاء، المغرب، ص47.

(12) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: مجموعة من المؤلفين التونسيين. (ص29).

(13) ينظر: الطعاني، يوسف: اللغة كأيديولوجية مجلة الفكر العربي المعاصر لبنان _ ص: 75.

(14) طحان ريمون ودنيز بيطار طحان: فنون التعقيد وعلوم الألسنة، لبنان- ص 292.

– see: zelligs. Harris, Analyse du discourse, in Langage, N13 mars, 1969,pp.8-9. (15)

(16) انظر: تزفتيان تودوروف: الأدب والدلالة،.ترجمة: محمد نديم خشفة، حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1996، ص57.

(17) الماركسية وفلسفة اللغة ميخائيل باختين: تر: محمد البكري ريمني العيد ص 150.

(18) الغذامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي،جدة، المملكة السعودية، 1985م.ط1، ص 321.

(19) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة ص 155.

(20) ريمون طحان ودنيز بيطار طحان: فنون التعقيد وعلوم الألسنة – لبنان- ص 292.

(21) المسدي، عبد السلام: المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع (تونس)، ط 1 (1994).

(22) سورة:ق، الآية 18.

(23) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة- ترجمة: محمد البكري ريمني العيد- ص 150. انظر: خليل، حلمي: دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية،2000م،36ص 45.

(24) جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: د. عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة (البيضاء)، ط 1 (2000)، ص 21.

(25) خليل، حلمي: دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، 2000م ص45

انظر: Chomsky, n , Langage and mind, new york, 1972. pp 33

(26) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة- ترجمة: محمد البكري ريمني العيد- ص 150. وانظر: محاضرات في السيميولوجيا، محمد السرغيني دار الثقافة، المغرب،ط1 1987،ص68.

(27) المسدّي، عبد السلام: المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع (تونس)، ط 1994،1. التهانوي محمد علي:موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (ق 12 هـ) تح: د. علي دحروج، تر: عبد الله الخالدي، تق: رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت)، ط 1 (1986)، 788/1.

(28) انظر: جيران. عبد الرحيم: مفهوم السيميائيات، الحوار الأكاديمي والجامعي، العدد1، السنة 1يناير1988، ص:7؛ المرتجي، أنور: سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،ط1، 1987، ص: 3؛ حنون، مبارك: (السيميائيات بين التوحد والتعدد)، الحوار الأكاديمي والجامعي، العدد2، فبراير 1988، السنة1، ص: 8؛ بيير غيرو: السيمياء، ترجمة: أنطون أبي زيد،ط1، 1984، منشورات عويدات بيروت، لبنان، ص: 5؛ ترنس هوكز: البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، ط1 ،1996، بغداد، العراق، ص:114؛ رولان بارت: مبادىء في علم الأدلة، ترجمة محمد البكري، دار قرطبة للنشر بالدار البيضاء، ط1، 1986؛ مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وأخرين، ط1، 1987، دار أفريقيا الشرق، البيضاء، د. محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا،دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1 ،1987م؛ د. عبد الرحمن بوعلي: محاضرات في السيميولوجيا، ألقيت على طلبة الإجازة بكلية الآداب بوجدة سنة 2005-2006؛.

(29) حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة علم المعرفة، رقم 232، سنة 1998م،ص270.

(30) السابق،ص265.

(31) السابق،ص265.

(32) السابق،ص266.

(33) السابق،ص267.

(34) السابق،ص269.

(35) حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة علم المعرفة، رقم 232، سنة 1998م.

(36) السابق،ص270.

(37) السابق ،ص270- 274.

(38) خليل، حلمي: دراسات في اللسانيات التطبيقية، 36 ص 45.

(39) ابن جني، أبو الفتح: الخصائص: 18/1

(40) الحموي، ياقوت:معجم الأدباء 95/16.

(41) ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، ص 112

[42]مغني اللبيب ابن هشام: ص 490.

[43] ينظر: حسان تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 189، 204

[44] ماريو باي: أسس علم اللغة ترجمة: أحمد مختار عمر _ ص 113

[45] الجرجاني، عبد القاهر:دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،1984، ص222.

[46] خفاجي، محمد عبد المنعم- فرهود، محمد السعدي- شرف، عبد العزيز: الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط2، 1999م

[47] مقدمة دلائل الإعجاز ص 3/28.

[48] ماريو باي : أسس علم اللغة _ ترجمة : أحمد مختار عمر _ ص 112، الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القادر، 1979الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص318-319

[49] خفاجي، محمد عبد المنعم- فرهود، محمد السعدي- شرف، عبد العزيز: الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط2، 1999م

[50] حسان، تمام، اللغة العربية، معناها ومبناها، دار الثقافة، ط.ن.لا، الدار البيضاء، المغرب، ص189-204. وانظر: نظريات العلاقات بين عبد القاهر والنقد العربي الحديث، أحد نايل، دار الطباعة.د.ت.ص37.

[51] ماريو باي : أسس علم اللغة، ترجمة : أحمد مختار عمر، ص 113

[52] ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق:محمد على النجّار، القاهرة، 1956م :ج 1 ص40.

[53] الجرجاني، عبد القاهر:دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،1984، ج/2:43.

[54]السابق ج43/2.

[55]السابق ج43/2.

[56] ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه وعلق عليه أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة د ت. 168/2.

[57] الزمخشري: المفصل _ ص 6.

[58] الزيات، أحمد حسن: دفاع عند البلاغة، مطبعة الرسالة 1945، ص 56. وانظر: الجاحظ، أبو عمرو: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط5، 1985م، 138/1-139.

[59] انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386م،145/1.

[60] ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق:محمد على النجّار، القاهرة، 1956م :ج 1 ص40

[61] انظر: ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386م،145/1.

[62] ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية،1988م. ص363.

[63] الزمخشري: المفصل، ص6.

(64) الزمخشري: المفصل _ ص 6.

(65) ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية،1988م. ص363.

(66) الجاحظ، أبو عمرو: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1961م. 17/1.

(67) البيان والتبيين 204/1

(68) البيان والتبيين 92/1-93.

(69) الرضي: شرح الرضي على الكافية _ ص 52.

(70) فضل، صلاح: علم الأسلوب، ص 10،

شفرات النص، القاهرة 1990م ،ص33.

(71) العسكري، أبو هلال: الصناعتين، القاهرة 1952. 382/1.

(72) مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، 1996م. ص 75

(73)انظر: مارسيلو داسكال الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد الحمداني، العمري، محمد- طنكول، عبد الرحمن – الولي، محمد- حنون، مبارك دار افريقيا الشرق، الطبعة الأولى1987. ص 17 - 18.

(74) فاخوري، عادل: حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1996 م.س، ص 182.